الإحياء الشعري في المغرب العربي

تمهيد:

شهدت الحركة الشعرية الإحيائية في العصر الحديث حضورا في الوطن العربي، ويعد المغرب العربي من البلدان التي حيث سجلت فيها إنتاجا فنيا متنوعا وثريا ساير الظروف التي مرت بها تلك البلاد. هذه الحركة أطلق عليها عدة تسميات سماها يوسف ناوري مصطلح التقليدية، وابن تاويت التقليد العتيق كما سميت الإحياء والبعث أو مدرسة الإحياء والمدرسة الاتّباعية الإحيائية، أو مدرسة النهضة، وكل هذه التسميات تصب في مفهوم واحد هو :إحياء القديم وإعادة بعثه من جديد، وقد رفع الشعراء في المغرب العربي راية الشعر الحديث من خلال إحياء القديم، وكان لهم دور لا يقل أهمية عن دور المشارقة .

1 - الإحياء في الجزائر:

- ظروف ظهور مدرسة الإحياء في الجزائر:

- كان لإيمان الجزائري بالمرجعية السلفية أثر كبير في تجذر المدرسة الإحيائية، وذلك راجع لطبيعة ثقافتها السلفية المحافظة التي ترتبط ارتباطا وثيقا بإحياء التّراث والمحافظة عليه ملتزمة بشعارها القائل:"من لايصلح آخر هذه الدنيا إلا بما صلح به أولها ".
- ظهور الحركة الإصلاحية ا والتأثر بمدرسة الإحياء في المشرق العربي لأنها تتماشى ومبادئ الجزائريين مما جعلهم يقبلون على قصائد هذه المدرسة ويحفظونها، ويكتبون على منوالها، وهنا يقول عبد الحميد بن باديس: " ثم هذا الشعر العربي، هو أصل ثروتنا الأدبية، وأصل بلاغتنا، ومرجع شعرائنا في اللّغة، والبلاغة، والأساليب العربية، فدرسه والاستفادة منه، أمر ضروري لحفظ اللّسان المبين "، رغم ذلك، فإن الأمير عبد القادر سبق بعقود عديدة ظهور الحركات الإصلاحية في المشرق.

1 - الإحياء في الجزائر:

أ - الأمير عبد القادر:

ولد الأمير عبد القادر عام 1807 بمعسكر، وتوفي سنة 1883 وازدهر على قلمه الإحياء الشعري في المغرب العربي، فكان مقلدا للقصيدة القديمة أمثال قصائد" زهير بن سلمى" في معاني الشوق والحنين وقصائد عنترة ابن شداد في الفخر كونه محاربا وفارسا وأديبا، وعموما شعره امتداد للشعر العربي القديم شكلا ومضمونا، وتناول فيه معظم الأغراض الشعرية خاصة الفخر. والفخر عنده فطري طبيعي. ومكتسب إرادي يقول في الأول:

لنـا الفـخـر العـميم بكل عصرٍ ومـصـر... هـل بـهـذا مـا يـقـال
ورثـنـا سؤددا للعـرب يـبـقـى وما تبقى السماء ولا الجبـــــال
فـبـالجدّ القـديـم عـلت قـريـش ومـنـا فـوق ذا طـابـت فـعـــال
وكـان لنـا دوام الدهـر ذكـرٌ بـذا نـطـق الكـتـاب ولا يـــزال

في حين يرجع فخره الإرادي والمكتسب إلى بطولاته وشجاعته في الحرب وبالقلم

وبي تتّقي يوم الطعان فـــــوارس تخالينهم في الحرب أمثال أشبـــال
إذا ما اشتكت خيلي الجراح تحمحما أقول لها صبرا كصبري وإجمالـي
وأبذل يوم الروع نفسا كريمـــــــة على أنها في السلم أغلى من الغالي
وعنّي سلي جيش الفرنسيس تعلمـي بأن منایاهم بسيفي وعسّالـــــي
سلي الليل عني كم شققت أديمـــه على ضامر الجنبين معتدل عـــال
سلي البيد عني والمفاوز والربـــى وسهلا وحزنا كم طويتُ بترحالـي

ميل الأمير للشعر العربي القديم ولغته، جعله يعتمد على التراكيب الجاهزة ويبتعد عن المعجم الشعري لعصره، فنراه يستخدم تراكيب متنوعة من بيئة أجداده العرب من مثل قوله: الطعن ، تخال، الروع، المفاوز، عسال، أديم..

ويقول مفتخرا:

لنـا فـي كـل مـكرمـة مـجـال ومـن فـوق السمـاك لنـا رجـالُ
ركـبـنـا للمـكـارم كل هول وخـضـنـا أبـحراً ولهـا زجـال
إذا عـنـها توانى الغير عجـزاً فـنـحـن الراحلون لها العجـال
سـوانـا ليس بـالمـقـصـود لمـا يـنـادي المستغيث ألا تعالـــوا
ولفـظُ النـاس ليس له مسمّـى سـوانـا والمنـى منّـا ينـــال

من خلال ما سبق نلخص أهم الخصائص التي يتميز بها شعر الأمير عبد القادر فيما يلي:

الموضوعات: تناول الأغراض الشعرية المعروفة.

الموسيقى: الاعتماد على البحور الخليلية المعروفة، والمحافظة على وحدة الروي والقافية.

اللّغة الشعرية: الاعتماد على التراكيب الجاهزة واللغة التقريرية.

ب ـ محمد العيد آل خليفة:

ولد محمد العيد آل خليفة بعين البيضاء عام 1904، وهو أحد أبرز شعراء العصر الحديث في الجزائر، و قال عنه الشيخ محمد البشير الإبراهيمي "شاعر مستكمل الأدوات، خصيب الذهن، رحب الخيال، متّسع جوانب الفكر، طائر اللّمحة، مشرق الديباجة، متين التركيب، فحل الأسلوب، فخم الألفاظ، محكم النسج ملتحمه، مترقرق القوافي، لبق في تصريف الألفاظ وتنزيلها في مواضعها. وقال عنه أحمد طالب الإبراهيمي: " شعر محمد العيد ساير نهضة الجزائر الحديثة وواكبها، فهو قلبها الخافق ولسانها الناطق وترجمانها الصادق، وهو مع ما فيه من بلاغة التعبير وصدق التصوير يمثل الإيمان بالدين والوطن، ويدعو إلى الثورة المسلحة على الاستعمال قبل اندلاعها بسنين.

والقوم كالأسد الروابض جثم من حولهم أو كالنسور الوقـــــع
قل للجزائر وهي أم مرضع مثل اللبؤة أي أم مرضـــــــــع
أبناؤك الأشبال فيك تزاوروا وتزاءروا في الغيل منك بمسمـــع

قد خانهم فيك الشريك فلم يبح طيب المناخ لهم وحسن المواقع

الصورة الشعرية هنا لا تخرج عن الإطار الذي رسمه القدامى من تشبيهات واستعارات. ويقف وقفة إجلال واحترام للشهداء إذ يقول داعيا إلى الثورة المسلحة قبل اندلاعها بسنوات:

قم يا ابن البلاد اليوم وانّهض بلا مهل فقد طال القعـــــود
وقل يا ابن البلاد لكلّ لـــص تجلى الصبح وانتبه ال رّقود
فخض يا ابن الجزائر في المنايـا تظلّلك البنود أو اللحـود

وقال مستذكرا ومترحما على الشهداء:

رحم الله معشر الشهـــــــــداء وجزاهم عنا كريم الجـــــــزاء
وسقى بالنعيم منهم ترابـــــــا مستطابا معطر الأرجـــــــــاء
هذه في الثرى قبور حوتهـــــــم أم قصور تسمو على الجـــوزاء؟
لا تخل معشرا قضوا في سبيل اللـ ـه موتى، بل هم من الأحيـــــــاء
انهم عند ربهم حـــــــول رزق منه في نعمة وفي ســـــــــراء

من خصائص أسلوبه:

- يعد "من أحد شعراء المدرسة الإحيائية التي تقوم على إحياء التراث وبعثه والاستفادة منه، فقد حافظ على نمط القصيدة العمودية والالتزام بالوزن والقافية .
- غلبت على شعره الذات القومية الجماعية تعبيرا عن وجدان الأمة، فقد اعتبر ذلك جزءا أساسيا من الوطني والقومي.
- الاقتباس من القرآن والحديث النبوي الشريف.

استقاء صوره من الطبيعة غالبا .

الاعتماد على التكرار فكثيرا ما يكرر المعنى الواحد في القصيد الواحدة.

2 - الإحياء في تونس:

تأثر الشعر التّونسي كذلك بمدرسة الإحياء والبعث في المشرق العربي نتيجة عوامل تاريخية وسياسية، فظهر العديد من الشعراء ضمن هذه المدرسة من بينهم:

أ - أبو القاسم الشابي:

جاءت جل قصائد أبي القاسم الشابي تقريبا - تفوح منها رائحة الحزن والكآبة والألم، فهو شاعر الحزن بلا منازع فمعظم حياته كانت« مليئة بالشقاء والألم، عامرة بالأحزان والأتراح، طافحة بالحرمان والتعاسة مغمورة بالكآبة والأسى ومن ذلك نسوق بعض الأبيات الشعرية التي تشير إلى مظاهر الحزن بشكل أوضح نحو: قصيدة "مأتم القلب"، حيث يقول يقول:

« فأنادي يافؤادي

مات من تهوى وهذا اللّحدُ قد ضمّ الحبيبْ
فابكِ ياقلبُ ! بما فيكَ من الحُبِّ الكئيبْ
إبكِ ياقلبُ ! وحيدْ »

ومن أروع ما كتب يدعو للثورة والدفاع عن الوطن:

إذا الشّعْبُ يَوْمَاً أرَادَ الْحَيَـاةَ فَلا بُدَّ أنْ يَسْتَجِيبَ القَــدَر
وَلا بُـدَّ لِلَّيْلِ أنْ يَنْجَلِـــــي وَلا بُدَّ للقَيْدِ أنْ يَـنْكَسِـــر
وَمَنْ لَمْ يُعَانِقْهُ شَوْقُ الْحَيَـاةِ تَبَخَّـرَ في جَوِّهَـا وَانْدَثَـــر
فَوَيْلٌ لِمَنْ لَمْ تَشُقْـهُ الْحَيَاةُ مِنْ صَفْعَـةِ العَـدَم المُنْتَصِـرِ
كَذلِكَ قَالَـتْ لِـيَ الكَائِنَـــاتُ وَحَدّثَنـي رُوحُـهَا المُسْتَــتِر

ب ـ محمد الشّاذلي خزنه دار:

ولد سنة 1881 وتوفي سنة 1954 ، دافع عن استقلال البلاد
ونظم القصائد الطوال مشهرا بالاستعمار، وداعيا إلى الصمود والنضال مفاخرا بالمآثر والأمجاد
خلف آثارا شعرية عديدة تشهد بجودة قريحته وتنوع مواهبه وهو ما أهله لينال لقب" أمير الشعراء في تونس وأكثر من ذلك فقد نعته حسن حسني عبد الوهاب بكونه" شاعر القطر وبحتري العصر.يقول في إحدى قصائده :

زعموا بأنّ لديّ خطة ضابط ونسوا بأنّ لديّ خطة شاعـر
جعلوا الوظيف وسيلة لعقوبتي فسجنت ترضية لذاك الخاسر
ها إ نّني بالرّغم عني قائـــد مابينهم لكن بدون عســـاكر

يبين الشاعر من خلال هذه الأبيات أن للنضال والمقاومة وسائل عديدة غير السلاح والحرب، من بينها الكلمة، إذ نجده يفضل خطة الشاعر على خطة الضابط، فهي قصيدة وطنية تحمل نوعا من المقاومة والدفاع عن الوطن.
أما من حيث الشكل فالشاعر حافظ على البنية التقليدية للقصيدة القديمة فكتب قصيدته على بحر الكامل، وحافظ على وحدة رويها" الراء "وكذا القافية.